الصباح الإسلامية
09
إشراف : ياسر السيد
العدد 2516 - السنة التاسعة
الخميس 9 شوال 1437 - الموافق 14 يوليو 2016
Thursday 14 July 2016 - No.2516 - 9th Year

التفكر والتدبر من العبادات الصامتة ... المتعلقة بالقلب

هناك انواع من العبادات كثيرة ومتنوعة ومن هذه العبادات النافعة والمباركة عبادة التفكر التي تتعلق بالقلب ولا يستعمل فيها اللسان وباقي الجوارح فهي عبادة صامتة.

وقد ورد في التفكر فضل عظيم في الكتاب والسنة والآثار، قال تعالى في سياق مدح المؤمنين: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران من الآية:191]. وفي الإسرائيليات روي عن عيسى عليه السلام انه قال: «طوبى لمن كان قيله تذكرا وصمته تفكرا ونظره عبرا».

واعتنى السلف بهذه العبادة الجليلة وكان لهم فيها احوال، قال ابو سليمان الداراني: «إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله على فيه نعمة ولي فيه عبرة». وقال الحسن البصري: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة». وقال ايضا: «الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك». وقال سفيان بن عيينة: «الفكرة نور يدخل قلبك».

والتفكر معناه في الاصطلاح الشرعي: إعمال العقل في أسرار ومعاني الآيات الشرعية والكونية عن طريق التأمل والتدبر وملاحظة وجه الكمال والجمال ومشاهدة الدقة وحسن التنظيم والسنن الكونية والتماس الحكمة والعبرة من وراء ذلك.

وقد خاطب الله الكفار وحثهم على التفكر في ملكوت السماوات والأرض ليعرفوا تفرده واستحقاقه للحمد فيخلصوا العبادة له وتخبت قلوبهم وتخضع له وتكفر بما سواه من الشركاء العاجزين. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:185].

ومجالات التفكر في الأمور الآتية:

1. آيات الله الكونية: بأن يشاهد الانسان جمال روعة الجبال والبحار والأشجار والأنهار والسهول والطبيعة الخلابة ويلاحظ تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر وفق نظام بديع لا يتخلف ولا يضطرب على مر الزمان. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:61-62].

2. الآيات الشرعية في آي القرآن بان لاحظ بلاغة القرآن وفصاحته وحسن تنظيم الكلام و مناسبته لأغراض الكلام ومقام السياق وإعجازه وحسن عرضه لقضايا التوحيد والتشريع والسلوك والآداب. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:44].

3. تكوين الانسان بان يشاهد تنوع الاعضاء وحسن تنسيقها وبديع صنعها ودقتها وكبير فائدتها وانسجامها في العمل فيتأمل في القلب والشرايين والأعصاب ووظائف العقل وإعجاز حاسة النطق والسمع والبصر واللمس والذوق وما يجري في هذه النفس من الدم والماء والإنزيمات التي تضبط حياته وتؤثر على تصرفاته. قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21].

4. طبيعة النفس البشرية بان يتأمل في نزعات النفس والرغبات التي خلقه الله عليها من حب الدنيا والرئاسة والتملك وحب الاعتداء والاستيلاء على ملك الغير وحب الخلود. ويتأمل في غريزة حب العمارة فلو كان جميع الخلق زاهدا لما عمرت الأرض. قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب من الآية:72].

5. الكائنات الحية حيث خلقها الله وجعلها تعيش وفق نظام دقيق وعام وشامل حيث انشاها على اختلاف نوعها ولغاتها وطبيعتها وتكفل برزقها وتسييرها وهداها لمصالح عيشها وكفايتها فلم يعجزه ذلك مع كثرتها وتنوعها وكلما زادت أحدث الله سببا جديدا في الرزق. قرأ واصل الأحدب هذه الآية ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:22]، فقال: «ألا إني أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض؟». فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا، فلما ان كان اليوم الثالث إذا هو بدوخلة من رطب. وكان له أخ أحسن نية منه دخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت».

فلا تغتر ولا يهولنك كلام الكفار عباد الدنيا من نقص الأرزاق في الأرض ونفاد الماء وخشية هلاك العالم فهذا الكلام يصدر ممن لم يعرف عظم الخالق وتفرده بالرزق. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:6]، فالله تكفل بالرزق ويعلم أين يأوي كل حيوان وأين يموت.

6. التأمل في نشأة خلق الكائنات على اختلاف طبائعها ووظائفها وتصنيفها وبيئتها سواء كانت كائنات دقيقة لا ترى بالعين أو ظاهرة أو بحرية أو برية أو برمائية وسواء كانت أحادية الخلق أم مركبة. فيتأمل في نشأة النبات كيف ينمو والطير في أوكارها والحيوان في الغابات وهذا باب كبير التفكر فيه لا ينقضي ولا يحيط بعلمه مخلوق. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:45]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:10-11]. فيا سبحان الله ما أعظم عجائبه.

7. التفكر في حال الدنيا وسرعة زوالها وعظم فتنتها وتقلب أحداثها وتداول أيامها وحال أهلها اللاهثين وراء سرابها العابدين لها المفتونين بزينتها ثم تتكرها لهم وجحودها إياهم ومآلهم فيها إلى الخسارة والهوان والهم والحسرة في الحياة والممات فحالهم معها كرجل افتتن بعروس وأنفق في سبيلها وتعلق قلبه بها ثم لما زفت إليه وانكشف الغطاء رأى منها ما يهوله من النقائص والعيوب فانقبض منها ثم ولت عنه مسرعة وفي قلبه حسرة وندامة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:24].

8. التفكر في أحوال الأمم السابقة والشعوب البائدة والحضارات المندثرة كيف وجدوا وتكاثروا ومكن لهم وعمروا الأرض واغتروا بعددهم وعدتهم وأموالهم وكيدهم ثم جاءتهم الرسل يدعونهم للحق فاستكبروا فنزل عليهم العذاب فأبادهم عن بكرة أبيهم وبقيت آثارهم شاهدة على كفرهم وعجزهم وزوالهم. والحديث عن هذا يطول وفي قصصهم عبرة للمتفكرين. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:9].

أما ذات الله وصفاته فيمنع التفكر فيها ويحرم لما جاء في الأثر: «تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في الله» (رواه الطبراني)، لأن العقل يستحيل عليه إدراك كنه ذلك والإحاطة بعلمه، ولأن التفكر في هذا الأمر قد يفضي إلى الوقوع في مقاسد اعتقادية من التفويض والتشبيه والتمثيل والإلحاد وطروء الشك في المسلمات. ولذلك لما أعمل المبتدعة من معتزلة وغيرهم عقولهم في كنه ذات الله وصفاته فسد اعتقادهم وخرجوا عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكل ما يتخيله الإنسان ويخطر عليه فيه فالله على خلافه سبحانه كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى من الآية:11].

إن الانسان إذا قام بعملية التفكر في جميع خلق الله وآلائه استفاد أمورا:

1. سعة علم الله وخبرته بخلقه وأحوالهم وما يصلح لهم.
2. سعة قدرة الله ودقة إتقانه للمخلوقات.
3. سعة رحمة الله وإحسانه على خلقه.
4. عظيم حكمة الله وحسن تقديره للكائنات.
5. افتقار الانسان وتذلله وعجزه وقلة حيلته فهو اداة صغيرة في هذا الكون العظيم المسخر له.
6. عظم حق الله وفضله على خلقه.

وبتحقق هذه الأمور والمعاني تنتج فائدة وثمرة التفكر الكبرى في هدفين:

أولا: أن يستقر في قلبه عظم الخالق وغناه وتفرده بالخلق والتدبير وتكفله برزقهم.. فكل ذلك يجعله يقر ويعترف بتفرد الخالق بالعبادة فيخضع له ويتاله له وينصرف له بالعبادة وحده دون ما سواه. قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولبنت مفاصله للعبادة».

ثانيا: أن يحدث ذلك له زيادة الإيمان فإنه إذا تعرف على كمال صفات الرب وجماله وجلاله من علم وقدرة وحكمة وحسن عادته ورحمته بالخلق وقيامه بمصالحهم وحلمه عليهم على مر الزمان وإنزال الرحمة عليهم مع كونهم يعصونه بالليل والنهار زاد إيمانه في قلبه لمشاهدته عظم الخالق فكلما زاد اليقين زاد الإيمان ولهذا كان العلماء أخشى الله من عباده. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر من الآية:28].

ومن التفكر المحمود النظر والتأمل والتدبر في مقاصد الشارع في أحكامه وعلل التشريع والتماس الحكمة التي بنيت عليه الأوامر والنواهي الشرعية فإن هذا الباب عظيم النفع ومن أعمل فكره فيه واستفرغ جهده وكان أهلا تكون لديه ملكة فقهية وقدرة على الاستنباط وإعمال القياس الصالح في موضعه وزال عنه كثير من إشكالات العلم واعتراضات الجهال.

ومن أعظم ما يعين العبد على التفكر الخلوة عن الخلق واعتزالهم والبعد عن شواغل الدنيا وعلائق الترف ومجالس اللهو بحيث يكون القلب مستجمعا للفكرة محلا صالحا للعبرة تؤثر فيه الحكمة.

ومع بيان فضل هذه العبادة وعظيم أثرها في زيادة الإيمان واليقين والتأله إلا أن كثيرا من الناس اليوم غافلا عنها معرضا عن العمل بها لشغله بالدنيا وقلة علمه وطول أمله ودخوله في الأماني الكاذبة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس من الآية:92].

«ولمن خاف مقام ربه جنتان»

هذه آيات عظيمة تدل على أن من خاف مقام الله فهو من أهل الجنتين العاليتين العظيمتين، لأن خوف الله الصادق يحمل على أداء الفرائض وترك المحارم والمسارعة إلى كل خير، من خاف الله صادقا سارع إلى كل خير وابتعد عن كل شر، فلهذا وعده الله بالجنتين العظيمتين، وهما الجنتان العاليتان بالنسبة للجنتين الأخريين، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ[الملك: 12]، ومن الأجر الكبير دخول الجنة والنجاة من النار، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ × وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ × وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ × وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ × أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ[المؤمنون: 57-61]، فالخوف إذا عظم واشتد أوجب على الخائف أداء فرائض الله وترك محارم الله والمسارعة إلى كل خير، فلهذا صار في المنزلة العالية في الجنة، وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ[الرحمن:46]، ومن ادعى الخوف وهو يفرط في طاعة الله أو يرتكب معاصي الله فقد كذب، يكون خوفه ضعيف، الخوف الصادق يحمل أهله على أداء فرائض الله وترك محارم الله والمسارعة إلى كل خير.

كُتّاب الوحي وعددهم

كُتّاب الوحي هو لقب أطلق على بعض الصحابة الذين كان يستدعيهم الرسول لتدوين ما ينزل عليه من القرآن الكريم بوحي جبريل عليه الصلاة والسلام، فمن هم كتّاب الوحي، كم عددهم، هذا ما سنجيب عنه في مقالنا هذا. كُتّاب الوحي هم الكتبة الذين كان يطلبهم الرسول صلى الله عليه وسلم حينما ينزل عليه آيات من القرآن الكريم في حياته، ويأمرهم بكتابة ما أوحي إليه عند نزوله ويبلغها أصحابه، وبذلك فقد كان القرآن الكريم كله مكتوبا على اللحاف، والرقع، والأقتاب، والأكتاف، والعسب عند وفاته. وقد اختلف كتّاب السيرة في تحديد أسماء كتّاب الوحي وأعدادهم، فمنهم من عدّهم ثلاثة عشر كاتبا، ومنهم من زادهم إلى العشرين، ومنهم من عدهم ثلاثة وعشرين كاتبا كابن كثير مثلا، ومنهم من عدّهم الذين وأربعين كاتبا للوحي. من أهم كتّاب الوحي الذين ذكروا في الكثير من الكتب: الخليفة الراشدي أبو بكر الصدّيق، الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب، الصحابيّ الجليل أبان بن سعيد بن العاص، الصحابيّ الجليل أبيّ بن كعب، الصحابيّ الجليل زيد بن ثابت، الصحابيّ الجليل معاذ بن جبل، الصحابيّ الجليل الأرقم بن أبي الأرقم، الصحابيّ الجليل ثابت بن قيس، الصحابيّ الجليل حنظلة بن الربيع، الصحابيّ الجليل خالد بن سعيد بن العاص، الصحابيّ الجليل سيف الله المسلول خالد بن الوليد، الصحابيّ الجليل الزبير بن العوّام حواريّ الرسول صلى الله عليه وسلم، في بعض المراجع يتم تصنيف كتّاب الوحي إلى كتّاب مكّة، و كتّاب المدينة، و كتّاب ما بعد الحديبية؛ وقد كان الخلفاء الراشدون من كتّاب مكّة المكرمة بالإضافة إلى أبي سلمة المخزوميّ، وعامر بن فهيرة، والأرقم، والزبير، وطلحة، وابن أبي بكر عبد الله، أمّا كتّاب الوحي من المدينة المنوّرة فقد كان منهم أبو أيّوب الأنصاريّ، وأبيّ بن كعب، وعبد الله بن رواحة، وحذيفة بن اليمان، وحنظلة بن الربيع، وغيرهم. أمّا كتّاب الوحي الذي زادوا بعد صلح الحديبية، فقد كان منهم خالد بن الوليد، وجهم بن سعد، وأبان بن سعيد، والمغيرة بن شعبة، والعلاء الحضرميّ، ومعاوية بن أبي سفيان، وغيرهم الكثير. ممّا يجدر ذكره، أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عندما توفّي كان القرآن الكريم مكتوباً على مختلف وسائل الكتابة التي توفرّت لهم آنذاك، إلّا أنّه لم يكن مرتباً أو مجمّعاً في عهده، وقد شهد عهد خلافة أبي بكر الصديق الخليفة الراشدي الأوّل تجميع القرآن الكريم بنصيحة من الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهم خوفاً عليه من الضياع، وفي عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان فقد أمر بعمل سبع نسخ من القرآن الكريم وتوزيعها في أقطار المسلمين، وتنقيطها خوفاً عليه من التحريف والضياع بعد دخول الكثير من الأعاجم إلى الإسلام في عصر الفتوحات.